Journal of the University of Babylon for Humanities مَجلّةُ جَامعةِ بَابِل للعُلومِ الإنسَانيّةِ
Vol. 29/ No. 12/ 2021 المجلد 29/ العدد 12/ 2021

الاقتضاء التداولي في خطبة الإمام علي بن الحسين السجاد (عليه السلام) في مجلس يزيد

كاظم جاسم منصور العزاوي
كلية الآداب / جامعة بابل
Art.kadhim.jassim@uobabylon.edu.iq

تاريخ استلام البحث: 2021/11/15 تاريخ قبول النشر: 2021/11/ 23 تاريخ نشر البحث: 21 /12/ 2021

المستخلص:

تأتي دراسة الاقتضاء التداولي في خطبة الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام في سياق الجهد النقدي المعاصر الذي يفيد من النظريات والمناهج النقدية الحديثة في الكشف عن بنية الخطاب، ومن ثم، فهمه. وقد كان الاقتضاء التداولي بوصفه أداة وآلية إجرائية تداولية في مقاربة الخطاب ، سبيلا لتحليل خطبة الإمام؛ لأن الخطبة جاءت اقتضاء للسياق الذي قيلت فيه، من جانب، وانبثقت فقراتها على مقتضيات مضمونية من جانب آخر.

وقد مهّدت لهذه الدراسة بالعريف بمصطلح الاقتضاء التداولي وعلاقته بمبدأ التعاون الغرايسي تأسيسا للجانب الإجرائي الذي يكشف عن المعنى الاقتضائي، الذي رسم بنية الخطبة على وفق مقاصد الإمام عليه السلام.

الكلمات الدالة: الاقتضاء، خطبة، الإمام، السجاد

Deliberative Necessity in the Sermon of Imam Ali bin Al-Hussein Al-Sajjad(peace be upon him) in the Yazid Council

Kadhim Jassim Mansor Al Azzawi
Department of Arabic/ College of Arts/Univarsity of Babylon

Abstract

The study of the deliberative necessity in the sermon of Imam Ali bin Al-Hussein Al-Sajjad, peace be upon him, comes in the context of the contemporary critical effort, Which benefist from modern critical theories and methods in revealing the structure of the discourse, and therefor, its understanding. The deliberative necessity as atool and procedural pragmatic mechanism in the discourse was a way to analyze the imams sermon, Because the sermon came as requirment of the context in which it was said, on the one hand, and its paragraphs emerged from the requirements of content on the other .

I paved the way for this study with the corporal with the term "deliberative necessity " and its relationship with the principle of "Graisi cooperation" based on the procedural aspect that reveals the prescriptive meaning, which drew the structure of the sermon according to the intentions of the Imam, peace be upon him.

Keywords: Istiqaa, sermon, Imam Al-Sajjad

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الاقتضاء التداولي وعلاقته بمبدأ التعاون:

مبدأ التعاون: قبل الحديث عن مفهوم الاقتضاء التداولي لابد من عرض موجز عن مبدأ التعاون الذي يعد ركنا أساسيا يبنى عليه الاقتضاء التداولي. إذ توصل غرايس الى استنباط أربع قواعد أو مبادئ حوارية يحكمها مبدأ عام هو مبدأ التعاون[1: 87]. وذهب الى أن هذه المبادئ هي أساس كل حوار يجري داخل العملية التخاطبية، وهذه المبادئ تنظم الحوار في مستوييه: الحرفي المباشر وغير الحرفي أي الاستلزامي[1: 39]. وجوهر مبدأ التعاون عند غرايس ينص على أن المتكلم يشارك "في المحادثة بالقدر المطلوب في الوقت الملائم بما يقبل من غرض أو اتجاه لتبادل الحديث المشغول به"[2: 151]. أي أن مبدأ التعاون يقتضي تعاون أطراف العملية التواصلية؛ فالمتكلم يراعي في خطابه المخاطب لغويا ونفسيا واجتماعيا وثقافيا، ويفترض من المخاطب أن يبدي تعاونا يتمثل في الإصغاء والانتباه والتركيز وغيرها من العوامل المساعدة في التواصل الجيد[3:128].

يقوم مبدأ التعاون على أربع قواعد، هي[1:87-88 و 4: 83-85]:

- الكم: أن تكون مشاركتك بالمحادثة مفيدة بالقدر المطلوب من دون زيادة أو نقصان.
- الكيف: أن لا تقول بما تعتقد بطلانه، أو بما يعوزك الدليل عليه.
- الجهة: أن تكون مشاركتك واضحة وموجزة ومرتبة، وذات صلة وثيقة بالغرض من التبادل الاتصالي.
- الطريقة: أن تكون مشاركتك ملائمة وتتسم بالوضوح والسهولة وأن تتجنب الإبهام والغموض.

وبذلك يصبح مبدأ التعاون – على وفق قواعده – شرطا ناظما تتوقف عليه قابلية التبادل الكلامي[5: 347]، وانتهاك قاعدة أو أكثر من هذه القواعد يؤدي الى الاقتضاء التداولي، الذي بموجبه يتم الوصول الى المعنى الضمني غير المصرح به في ظاهر الكلام؛ لأن الاقتصار على المعيار التركيبي لا يفضي الى تفسير مقبول لبعض التراكيب، ولذلك لابد من اعتماد سياق التلفظ، بما فيه من افتراضات منطقية وأخرى تداولية[6:97].

وتأسيسا على ما تقدم أصبح مفهوم متضمنات القول مفهوما تداوليا يتفرع الى ثلاثة فروع إجرائية، يمثل كل فرع منها أداة وآلية تحليلية معنية برصد الظواهر اللغوية المتعلقة بجوانب من المعنى ضمنية وخفية، تحكمها ظروف الخطاب العامة (السياق بمفهومه العام)[7: 30-33]، وهي:

1- الاقتضاء التداولي
2- الافتراض المسبق
3- القول المضمر

الاقتضاء التداولي (conversational implicature): قد يستدعي الكلام في سياقات معينة إضافة أو تقديرا، لتتحقق الإفادة المطلوبة، وذلك هو (الاقتضاء)، فهو في أساسه طلب إضافة أو تقدير عبارة ليستقيم الكلام ومن ثم يتحقق المقصد منه. **ولذلك** يعد الاقتضاء التداولي من أهم مفاهيم التداولية، بل ألصقها بالإجراء التحليلي في الدرس التداولي، وقد نشأ هذا المفهوم على يد غرايس في عام 1967، في بحث يحمل عنوان (المنطق والحوار)، عالج فيه الاقتضاء التداولي (الاستلزام الحواري)، وتم نشره في عام 1975، ومن هنا بدأ غرايس عهدا جديدا في علم الاستعمال [8: 611/2]. وترجم هذا المصطلح **(conversational implicature)** عدة ترجمات هي:

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الاستلزام الحواري والاستلزام المحادثي والاستلزام الخطابي والتلويح الحواري والتضمين التحادثي والإضمار في المحادثة والاقتضاء التخاطبي[9: 90 و10: 148]، وهي جميعا بمعنى واحد مع بعض الفروقات الطفيفة، وقد رجحت ترجمته بالاقتضاء التداولي ليشمل جميع هذه المصطلحات.

وقد انطلق غرايس في بحثه من أن الناس في حواراتهم يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، ولهذا جعل جل غايته إيضاح الاختلاف بين ما يقال (المعنى الحرفي) وما يُقصد (معنى المتكلم)، على افتراض أن المخاطب قادر على فهم قصد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال. فأراد غرايس أن يجد آلية ينتقل بها من المعنى الحرفي للقول الى المعنى الضمني الذي يحمله القول، فنشأت عنده فكرة الاقتضاء؛ لأنه "يقدم تفسيرا صريحا لمقدرة المتكلم أن يعني أكثر مما يقول بالفعل" [1: 141]. فالجملة إذن تتضمن معنيين اثنين في الوقت نفسه: أحدهما حرفي والثاني مقتضى، فجملة: (أقلع زيد عن التدخين)، تتضمن معنيين، الأول: معنى حرفي صريح هو إقلاع زيد عن التدخين. وهذا المعنى هو المحتوى المقرر أو المعلن أو المخبر عنه، وفي الوقت نفسه أبلغ المتكلم بكيفية غير صريحة أن زيدا كان يدخن في وقت مضى، وهذا المعنى هو المحتوى المتضمن (المقتضى). ولو نظرنا الى البيت المنسوب لأبي الأسود الدؤلي[11: 8/567]]:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

لوجدناه يتضمن معنيين[12: 266]:

المعنى الحرفي: الدعوة الى عدم قبول الفعل أو السلوك الذي نرفضه.

المعنى الاقتضائي: التوبيخ

فالاقتضاء "يستند الى مبادئ عامة تقع خارج تنظيم اللغة، وتهدف الى الاتصال القائم على التعاون" [13: 141]. ويتحقق الاقتضاء اعتمادا على مضمون الكلام بظروف معينة تتعلق بطبيعة التخاطب القائمة أساسا على مبادئ التعاون [13: 148]، ومن هنا أكد غرايس أن الاقتضاء يتحقق بطريقتين، على وفق الموقف الذي يتخذه المتكلم من تلك المبادئ:

الأولى: الامتثال لقواعد التخاطب (مبدأ التعاون) ومراعاتها، وبذلك يتولد المعنى الاقتضائي "حتى مع احترام المتكلم لكل تلك المبادئ وعدم خرقه لأي منها" [12: 164]. وهذا النوع من الاقتضاء الذي يقوم على مراعاة القواعد يسمى الاقتضاء العرفي أو النموذجي، الذي يعود الى المفردات المعجمية بالعرف أو الاتفاق [13: 165]. فلو سأل رجل صديقه: أين تقع مدينة البصرة؟ وأجاب الصديق: في جنوب العراق، فسنجد أن الجواب (في جنوب العراق) كان جوابا قد تحققت فيه قواعد مبدأ التعاون: الكم والكيف والطريقة والجهة، فكان الجواب بالقدر المطلوب (الكم)، وصادقا (الكيف)، وواضحا (الطريقة)، وذا صلة بالسؤال (الجهة) [14: 35].

الثانية: الخروج على قواعد التخاطب (مبدأ التعاون) وخرقها رغبة من المتكلم في تضمين خطابه معنى إضافيا غير المعنى الذي تعبر عنه كلماته، ورغبة في حث المخاطب على ملاحظة ذلك المعنى الإضافي، وهو ما يسميه غرايس (الاقتضاء الحواري أو التخاطبي) الذي يرتكز على قواعد مبدأ التعاون، من جهة، وهو متغير بتغير السياقات التي يرد فيها، من جهة أخرى. وبهذا النوع يصبح التمييز بين المعنى الحرفي/الدلالي والمعنى

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الاستعمالي/التداولي واضحا الى حد كبير[1: 92]. فغالبا ما تتولد المدلولات الاقتضائية نتيجة خرق المتكلم – بشكل ظاهري على الأقل – لواحد أو أكثر من تلك القواعد[12:164]. فعندما يستخف المتكلم – على حد تعبير غرايس– بهذه القواعد يحصل ما يسمى بالاقتضاء التداولي [13:148]؛ لأنه يتغير بتغير ظروف إنتاج العبارة[6: 431]. فقد ينتج عن انتهاك مبدأ الكيف: التعريض أو التلويح، وقد يوفر انتهاك مبدأ الكيف صورا بيانية كالتهكم والاستعارة، وينتج عن انتهاك مبدأ الجهة: الالتباس والغموض والإطناب[13:152–156].

ومن هنا يمكن التفريق بين معنى الجملة/المعنى الحرفي، ومعنى المتكلم المعنى التواصلي [14:158–159]. ويبدو أن الاقتضاء التداولي "هو محصلة خرق لهذه المبادئ الحوارية المنصوص عليها باعتبارها مقيدات للتعاون الحواري[15:196]. وبناء على ذلك قسم غرايس الدلالة على نوعين: معان صريحة ومعان ضمنية، و"المعاني الصريحة تشتمل على محتوى قضوي وقوة إنجازية حرفية، بينما تشير المعاني الضمنية الى معاني عرفية اقتضائية ومعاني حوارية استلزامية [15:196].

وإجمالا يمكن القول بأن غرايس أرسى أسس نظرية الاقتضاء التداولي بوصفها نظرية خاصة بكيفية الاستعمال اللغوي، نهضت على مبدأ عام يقضي بتعاون المتخاطبين بهدف تحقيق الفعالية القصوى لتبادل المعلومات. وفحوى هذا المبدأ هو الكلام على قدر ما يقتضيه الغرض من التواصل. ومن جانب آخر قامت النظرية على مبدأ التعاون الذي يجعل من السلوك اللغوي فعلا ناجحا، ويساعد على رصد الاقتضاء التخاطبي بوصفه خرقا مقصودا لقاعدة من قواعده لإدراك انسجام معاني الملفوظات مع المقصود من الخطاب [12: 21]. فالاقتضاء إذن ينبع منطقيا مما قيل في ملفوظ المتكلم، والملفوظات هي التي تحوي الاقتضاء وليس المتكلمون[16: 51].

الجانب الإجرائي:

تأسيا على ما تقدم يمكن لنا أن نتلمس معطيات الاقتضاء التداولي في خطبة الإمام علي بن الحسين عليه السلام في مجلس يزيد بن معاوية، باستحضار السياق العام للخطبة الذي يتمثل بواقعة الطف ومقتل الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه في العاشر من محرم من سنة 61ه بأمر من يزيد بن معاوية، ومن ثم، سبي النساء والأطفال بصحبة الإمام علي بن الحسين من كربلاء الى الكوفة، ومن ثم، الى الشام. وكان دخول السبايا الى الشام مناسبة للاحتفال، فعلّق أهلها الستور والحجب والديباج، ودفعوا نساءهم للعب بالدفوف والطبول، وهم فرحون مستبشرون[17: 2/195]. ولما دخل الإمام مع عماته وأخواته على الطاغية يزيد موثقين بالحبال، قال الإمام مخاطبا يزيد: "ما ظنك بجدنا رسول الله (ص) لو يرانا على مثل هذه الحالة؟ فأمر يزيد بحل الوثاق، وقال: قبح الله ابن مرجانة عبيد الله بن زياد، لو كان بينه وبينكم قرابة لما فعل بكم هذا"[17:2/195]. ثم دار حديث بين الإمام ويزيد، أفحم الإمام فيه يزيدا، فأمر يزيد الى خطيب من خطباء السوء اعتلاء المنبر والنيل من الإمام علي والإمام الحسين عليهما السلام، فقام وبالغ بالذم وأطنب في مدح معاوية ويزيد، فانبرى الإمام علي بن الحسين مخاطبا: "ويل أيها المتكلم اشتريت رضا المخلوق بسخط الخالق فتبوأ مقعدك من النار"[17:2/193].

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وكان من أدب الإمام الجمّ أن يستأذن يزيد كي يسمح له بالكلام، فقال: "أتأذن لي أن أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات فيهن لله رضا، ولهؤلاء الجالسين أجر وثواب"[194/2:18]، فرفض يزيد، ولكن الحاضرين _ وهم من خلّص حاشيته_أصرّوا عليه وهم يتوقعون أنه لا يحسن الخطابة أو هكذا تظاهروا، فوافق يزيد، فقام الإمام خاطبا[194/2:17]. فالمشاركون في الخطاب هم:الإمام علي بن الحسين عليه السلام بوصفه متكلما والحاضرون في مجلس يزيد بوصفهم مخاطبين، وفي مكان وزمان معلومين، هما مجلس يزيد بعد وصول السبايا من الكوفة الى الشام.

إن الخطاب بوصفه حادثة كلامية يقتضي وجود سبب له أو تحقيق نتيجة حاصلة[8:19]، وهذا ما نجده في خطبة الإمام بوصفها فعلا كلاميا يتضمن معنى اقتضاء السياق الخارجي من جهة، وتحقيق نتيجة الإقناع من جهة أخرى، وما بين هذين الاقتضاءين اقتضاءات أخرى. فمما له علاقة بالسياق الخارجي أن أهل الشام كانوا فرحين مستبشرين بقدوم السبايا بوصفهم خارجين على طاعة يزيد، وأنهم يعدّون قتل الإمام الحسين عليه السلام وسبي عياله سنّة للمسلمين. ولهذا اقترب شيخ من أهل الشام طاعن في السن من السبايا وبادرهم قائلا: "الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم وأراح البلاد من رجالكم، وأمكن أمير المؤمنين (يزيد) منكم"[193/2:17]. فأهل الشام كانوا يعتقدون بما يقوله لهم إعلام بني أمية، بل يأخذونه أخذ المسلمات[170/1:19]. وهذا الأمر اقتضى من الإمام أن يصحح معتقدات أهل الشام، وأن يقوم بدوره الإرشادي، ولا سيما بعد أن بالغ خطيب يزيد بالنيل من الإمام علي والإمام الحسين عليهما السلام، فاقتضى ذلك الموقف من الإمام أن يبين مناقب أهل البيت عليهم السلام، وأن يجمل تضحياتهم في سبيل الله، وعلو منزلتهم وعظيم دورهم في بناء الإسلام. ولهذا طلب الإمام من يزيد أن يخطب في الناس؛ لأن الخطبة بوصفها فعلا كلاميا يحكمها مفهوم القصدية، أي أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بمقاصد الخطيب[161:201].

وعلى وفق تصنيف سيرل للأفعال الكلامية[123:21] سنتابع خطبة الإمام للكشف عن تلك الأفعال التي تتضمن معنى اقتضائيا متضمنا في المعنى الظاهر لفظا، ومدى مطابقتها لقواعد مبدأ التعاون، وعلى النحو الآتي:

قال الإمام في خطبته: "أيها الناس أعطينا ستا، وفضّلنا بسبع، أعطينا: العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين. وفضّلنا: بأن منّا النبي المختار (ص)، ومنّا الصدّيق، ومنّا الطيار، ومنّا أسد الله وأسد رسوله (ص)، ومنّا سيدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنّا سبطا هذه الأمة وسيدا شباب الجنة"[17: 196/2].

يتضمن هذا المقطع من الخطبة فعلا إنجازيا إخباريا لتثبيت أمر وتوكيده بأسلوب حجاجي، حاول فيه الإمام الإيحاء والإحاطة بالموضوع للفت أنظار الناس الى تقصّي الحقيقة، فالنص يحمل معنيين:

الأول: المعنى الظاهر الإنجازي، يفيد بيان فضائل أهل البيت عليهم السلام إجمالا.

الثاني: المعنى الاقتضائي المتضمن في القول، ويشمل:

1- السخرية من الجالسين لانقيادهم الأعمى وراء التضليل الإعلامي الذي كان يمارسه أميرهم يزيد.
2- توبيخ الجالسين وأميرهم يزيد على فعلهم الشنيع بقتل الإمام الحسين عليه السلام.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

3- فضح جرائم بني أمية

فالخطاب موجه الى الناس، والإمام كان متعاونا، وهذا التعاون "يسمح باستدلالات تتجاوز المحتوى الدلالي للعبارات"[13: 148]. وهذه الاستدلالات هي اقتضاء تداولي يضمر أن يقول لهم: ما فضائل أميركم؟ وأين هو من فضائلنا نحن أهل البيت؟!فشتان ما بين الثرى والثريا، وأنتم مغرورون مخدوعون، آن لكم أن تنتبهوا، وأن تعرفوا الحق من الباطل. فإذا كنتم لا تعرفوني أو تنكرون معرفتي، فهذا أنا، جدي رسول الله (ص)، وجدي أمير المؤمنين علي (ع)، وجدتي فاطمة الزهراء (ع)، وأبي وعمي سيدا أهل الجنة، فمن هو أميركم؟ ومن هو جده؟ ومن أبوه؟ ومن هي جدته؟ وهذه كلها معان اقتضائية تعتمد "على مطالب معينة تتعلق بطبيعة التخاطب القائمة أساسا على التعاون" [13: 148] زيادة على المضمون.

لقد تعرض الإمام في الشام الى مواقف اقتضت أن يأخذ دوره الإرشادي، وقد استثمر تلك المواقف مناسبة للتعبير عن ارتباطه بالرسالة السماوية وبرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[17: 2/199]، وفضح ادّعاءات يزيد وأكاذيبه في تضليل الناس. وقد اعتمد الإمام استراتيجية خطابية تقوم على الحجاج تلميحا باستعمال آلية التعريف بوصفه "وسيلة من وسائل الإقناع ينطوي على التعريف بحقيقة الشيء وماهيته ليكون دليلا على الحكم الذي يريد إثباته"[35:21]. وبذلك كان التعريف اقتضاء تخاطبيا استعمله الإمام، فمرة يعرف بنفسه من خلال آبائه وأجداده، وفضائلهم ومناقبهم ردا على تخرصات يزيد بعد أن قال له: " أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقي، ونازعني في سلطاني، فصنع الله به ما صنع"[17: 2/199]. فبعد أن أجمل الإمام فضائل أهل بيته راح يعرّف بحسبه ونسبه بكلام مفصل غاية التفصيل، فقد قال مخاطبا الناس من خلال الإحالة على العالم الخارجي تاركا للسامعين متابعتها على وفق ما يمتلكون من خلفيات معرفية، فقال مفصلا: "فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي، أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرداء، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حج ولبى، أنا ابن حُمل على البراق في الهواء، أنا ابن من أسري به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، فسبحان من أسرى. أنا ابن من بلغ به جبرائيل الى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلّى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمد المصطفى.

أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا: لا إله إلا الله. أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله (ص) بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وبايع البيعتين، وصلّى القبلتين، وقاتل ببدر وحنين ولم يكفر بالله طرفة عين. أنا ابن صالح المؤمنين ووارث النبيين، وقامع الملحدين، ويعسوب المسلمين، وزين العابدين، وتاج البكّائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل ياسين ورسول رب العالمين، أنا ابن المؤيد بجبرائيل، المنصور بميكائيل. أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخر من مشى من قريش أجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله ولرسوله من المؤمنين، وأقدم السابقين، وقاسم المعتدين، ومبيد المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، وناصر دين الله، وولي أمر الله، ولسان حكمة الله، وعيبة علمه، [...] ذاك جدي علي بن أبي طالب عليه السلام.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيدة النساء، أنا ابن الطهر البتول، أنا ابن بضعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. أنا ابن المرمّل بالدماء، أنا ابن ذبيح كربلاء، أنا ابن من بكى عليه الجنّ في الظلماء، وناحت عليه الطير في الهواء" [17: 2/197].

نلاحظ أن الخطاب بتفصيلاته الدقيقة التي تحيل على وقائع العالم الخارجي يتضمن معنيين:

الأول: المعنى الظاهر الإنجازي، الذي يتمحور حول التعريف بحسب الإمام ونسبه.

الثاني: المعنى الاقتضائي المضمر، ويشتمل على عدة معان:

1- الاحتجاج بأحقية أهل البيت وإقناع الجالسين والتأثير فيهم
2- حث الجالسين على عقد مقارنة بين الإمام عليه السلام ويزيد
3- فضح ظلم يزيد بقتل الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه وسبي عياله سلام الله عليهم
4- إرشاد الجالسين وهدايتهم الى الحق وكشف التضليل الإعلامي الأموي

قواعد التخاطب في خطبة الإمام عليه السلام:

لكي تؤدي الخطبة فاعليتها، ويحقق الإمام غايته منها، لا بد أن يتعاون المتخاطبون باتباع عدد من قواعد (مبدأ التعاون) الضمنية اللازمة لتحقيق التواصل، بوصفها قواعد اقتضائية، إذ يفترض المتخاطبون الاحترام المتبادل لهذه القواعد، بافتراض أنهم يمتلكون معارف عامة عن العالم الخارجي، وأنهم ذوو ملكات ذهنية معينة[23: 64]، وعلى النحو الآتي:

اقتضاء الكم (كن موجزا): لقد ساق الإمام أكبر قدر من الحجج على قدر الحاجة من التعريف بنفسه حسبا ونسبا، فرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم جدّه، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام جدّه، وفاطمة الزهراء عليها السلام جدته، والحسين عليه السلام والده. وقد استوفى الإمام مناقب أهل بيته بالقدر الأكبر. وبتطبيق هذه القاعدة وجدنا أن كلام الإمام قد خرق هذه القاعدة في تعداد مناقب جده وأبيه وأمه عليهم السلام مراعاة لحال السامعين، إذ يجمل في مخاطبة المكابر الإطناب في القول، فارتبط كلام الإمام باقتضاء تداولي يقتضي معنى ثاويا غير المعنى التعريفي الظاهر، فجعل من المعنى الضمني المقصود – في أعلاه – اقتضاء، أقوى المعاني التي يمكن أن يوصلها في ذلك الظرف السياقي وأكثرها إفادة.

اقتضاء الكيف (كن صادقا): لقد ساق الإمام حججا تأريخية لا تخرج عن إطار التعريف، شهدت الشواهد وقوعها، ولم ينكرها المستمعون، فاكتسبت قوة حجاجية أكبر لأنها جاءت موافقة لقاعدة الكيف، كقوله في التعريف بجدّه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرداء، إشارة الى واقعة إعادة بناء الكعبة المشرفة واختلاف الناس في رفع الحجر الأسود [17: 2/197]. وقوله: أنا ابن من حُمل على البراق في الهواء [...] أنا ابن من صلّى بملائكة السماء، إشارة الى واقعة الإسراء والمعراج [17: 2/198].

وقوله في التعريف بجدّه أمير المؤمنين عليه السلام: أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا : لا إله إلا الله [...] وقاتل ببدر وحنين، إشارة الى شجاعة جدّه علي عليه السلام في معركتي بدر وحنين[17: 2/198]. وقوله: أنا ابن المحامي عن حُرم المسلمين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، إشارة الى المعارك التي خاضها

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

جدّه أمير المؤمنين في العراق: معركة الجمل ومعركة صفّين ومعركة النهروان[17: 2/198]. ويمضي الإمام في بيان أحقية جدّه أمير المؤمنين علي بإمرة المسلمين، فهو الإمام بالنص والاستحقاق، إشارة الى تنصيبه أميرا للمؤمنين في غدير خم[17: 2/198)].

وكذا استمر الإمام بالتعريف بجدّته فاطمة الزهراء عليها السلام وأبيه الحسين عليه السلام بقوله: أنا ابن فاطمة الزهراء، [...] أنا ابن ذبيح كربلاء، إشارة الى أن الذي قتله يزيد هو والده الغمام الحسين بن بنت رسول الله سيدة نساء العالمين.

وبذلك ساق الإمام شواهد تدعمها الوقائع والبينات التي أقرها الجالسون في مجلس يزيد ولم يعترضوا عليها؛ لأنها جاءت منسجمة مع الوقائع. وهذه الوقائع تقتضي جهل المستمعين بسبب التضليل الذي يمارسه إعلام بني أمية، أو إنكارها خوفا من بطشهم. وقد تحمل الإمام مسؤوليته الشرعية في إرشاد الناس وبيان الحق إيحاء اقتضائيا، تاركا للمستمعين مهمة إظهار ما قيل باللجوء الى استدلالات مباشرة انطلاقا من مراعاة مبدأ الكيف التعاوني[13: 148].

اقتضاء العلاقة (مطابقة الكلام لمقتضى الحال): لقد حقق الإمام في خطبته مطابقة حججه لمقتضى الحال على وفق ما اصطلح عليه البلاغيون[23: 248]، أي وجوب تعلق الخبر بالمقام[25: 100]، ولذلك لم يأت في خطبته كلام بينه وبين التعريف بحسبه ونسبه جفوة؛ ولو لم يكن كذلك لردّه عليه أحد ممن كان في المجلس، وفنّد الحجج المعروضة. وأن هذه القاعدة (العلاقة) تتيح أكثر من أية قاعدة أخرى الإيجاز في التخاطب والتخلي عن أمور مفروغ منها[13: 150]. وهذا ما تجسد في خطبة الإمام، فلم يتطرق الى أمور خارج نطاق التعريف.

اقتضاء الجهة (كن واضحا): تقتضي قاعدة الجهة تجنب الاضطراب والملل والإيجاز أو الإطناب المخل في القول[25: 100]. ولذلك فقد:

1- احترز الإمام من اللبس في خطبته، فلم يعترض عليه أحد من المستمعين عن سوء فهم لما جاء فيها.
2- تجنب الإمام الإجمال في خطبته، فجاء كلامه مفصلا لا يحتاج الى تفسير.
3- جاءت شواهده بعبارات موجزة، ألفاظها قليلة، لكنها تحمل قدرا كبيرا من المعاني، ألجمت السامعين، وأفحمتهم بدلالاتها وعمق معانيها، فقد ساق وقائع ومناقب يشهد لها التاريخ؛ لأن المقام مقام إطناب، والإطناب يرتبط ارتباطا وثيقا بظروف وأحوال المخاطبين، [26: 30]، فالسياق هو الذي يقتضي الإطناب على وفق ما يقتضيه المقام [26: 46]. وقد راعى الإمام جهل السامعين بالحقيقة، فرغب بعدم إحداث تشويش في أذهانهم، فمال الى الإيجاز في عبارته التي أسهب في تفاصيلها.
4- لقد جاءت عبارات الإمام مرتبة زمانيا ومكانيا، حسنة التصرف في إيراد الشواهد، فلم يتجاوز الإمام حجة قبل أن يستنفد الكلام حولها، واستقصاء الوقائع الدالة عليها، إذ إن الترتيب الزماني والمكاني مفهومان إضافيان ينجمان عن القرائن الخارجية (شواهد التاريخ) عند مراعاة قاعدة الجهة[13: 152].

نتائج البحث:

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وفي الختام نجد أن قواعد مبدأ التعاون بوصفها شروطا مقتضاة قد تحققت في خطبة الإمام، ومن ثم حققت غاية الإمام في تصحيح قناعات المستمعين، وقد تفاعل الناس معه فضجّوا بالبكاء، وقد خشي يزيد من وقوع الفتنة فأمر المؤذن أن يقطع على الإمام كلامه[17: 197/2]. وهكذا استطاع الإمام أن يؤثر في سامعيه لموافقة كلامه السياق الذي قيلت فيه، فكشف ظلم بني أمية ووحشية ما قاموا به من فعل؛ لأن "مدلول العبارة قد يتجاوز المعنى الحرفي لمجموع ألفاظها، وقد يتولد المعنى لدى المخاطب قبل أن ينتهي المتكلم من التلفظ بالعبارة [...] وكل هذا يكشف أن المعنى الحرفي والمصرح به ليس سوى جزء من المعنى، أما الجزء المتبقي فيتوقف على كل من المتكلم والمخاطب"[28: 127] استنادا الى مبدأ التعاون وقواعده.

CONFLICT OF INTERESTS

There are no conflicts of interest

قائمة المصادر:

1- النظرية القصدية في المعنى عند جرايس، د. صلاح إسماعيل، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس البحث العلمي، الحولية 25، 2005.
2- معرفة اللغة، جورج يول، تر: محمود فرّاج، دار الوفاء، ط1، الاسكندرية، 1998.
3- المنهج التداولي في مقاربة الخطاب، نواري سعودي أبو زيد، مجلة فصول، ع77، الهيأة المصرية العامة للكتاب، 2010.
4- التداولية من أوستن الى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سورية، 2007.
5- المضمر، كاترين – أوريكيوني، تر: ريتا خاطر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2008.
6- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2004.
7- التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، دار الطليعة، ط1، بيروت، 2005.
8- المنطق والمحادثة، غرايس، تر: د. محمد الشيباني و د. سيف الدين دغفوس، ضمن كتاب: إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين، مجموعة من الأساتذة والباحثين،المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، قرطاج 2012.
9- الاستلزام الحواري قراءة في تعدد المصطلحات،رندة قدور ومحمد بن أحمد، مجلة إشكالات في اللغة والأدب،جامعة البليدة، الجزائر، مج10، ع1، 2021.
10- الاقتضاء في التداول اللساني، عادل فاخوري، مجلة عالم الفكر، ع3، مج20، س1989.
11- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمرالبغدادي، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة،1989.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

12- التداوليات علم استعمال اللغة، مجموعة باحثين، تقديم: د. حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، ط1، أربد، الأردن، 2011.
13- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمد أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2006.
14- نظرية الفعل الكلامي، هشام عبدالله الخليفة، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 2007.
15- اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، د. نعمان بو قرة، عالم الكتب الحديث، ط1، أربد، الأردن، 2009.
16- التداولية، جورج يول، تر: د. قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، 2010.
17- حياة زين العابدين دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي، تح: مهدي باقر القرشي، مطبعة شريعت، ط1، إيران، 2008.
18- الاستلزام من قوانين الاقتضاء النصي، هاني صبري آل يونس، شبكة المعلومات.
19- الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي، تح: عبد الرحمن التركي، وكامل محمد الخراط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997.
20- تداوليات الخطاب السياسي، أ. نور الدين إجعيط، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2012.
21- نظرية أفعال الكلام العامة، أوستن، تر: عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991.
22- بلاغة الإقناع قراءة حجاجية في خطب الإمام الحسين عليه السلام، رائد حاكم الكعبي، مجلة العميد، ع9، مج3، س2014.
23- التداولية من أوست الى غوفمان، تر: صابر الحباشة وعبد الرزاق الجمايعي، عالم الكتب الحديث، ط1، أربد، الأردن، 2012.
24- مفتاح العلوم، السكاكي، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2000.
25- الاستلزام الحواري في الخطاب اللساني، العياشي أدواري، ط1، الرباط، 2011.
26- علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2004.
27- البلاغة والأسلوبية مقدمات عامة، د. يوسف أبو العدوس، دار الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 1999.
28- الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسان الباهي، أفريقيا الشرق، 2004.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq